شمس لا تعرف المغيب .. ومجد لا يعرف الصمت
ديوان الشاعر السعودي: محمد الحربي "زمان العرب"

■ د. خالد فهمي

رائعٌ هو الشرقُ
القائمُ خلفَ الحوض المتوسط!

ربما كان هذان السطران الشعريان اللذان أبدعهما جوته في ديوانه الشرقي مدخلاً صالحاً من كثير من الوجوه لدراسة الديوان، الذي أبدعه الشاعر السعودي محمد جبر الحربي، وجعل عنوانه: «زمان العرب» وصدرت طبعته الأولى عام ١٤٢٧هـ.

وربما صح كذلك أن نقرر أن هذه القصيدة/ الديوان ترغب في أن تفي العرب حقاً يهضمه الكثيرون في هذا الزمان تحت الانهزام، والديوان راغب كذلك في أن يعيد قراءة الحال، من زاوية المنجز الحضاري، معروضاً على ميزان الجوهر والعرض، وعلى ميزان الثوابت والمتغيرات، وقد تحقق له من خلال ما رصده مما يمثل جوهر عطاء العرب – أن يقرر أن هذا الزمان هو زمان العرب، على الرغم من معاكسات الشاغبين؛ لأنها معاكسات مغالطين خدعتهم خوادع، لفتتهم عن الجوهر الأصيل الكامن في العطاء العربي، يقول الشاعر:

تقول لي الوردة الآن هذا زمان العرب
وإن حط من حطّ
أو طار من طار
أو غار من غار
فاكتب هنا بالدم العربي وماء الذهب
وفي أول السطر، في الصدر
هذا زمان العرب

والتوقف أمام اسم الزمان: (الآن) الذي جاء معترضاً بنية السطر الأول، بين القول والمقول، تظهر حرص الشاعر على بيان التوقيت؛ لتدفع توهم حمل الكلام على أي زمن مضى. القصيدة ترد النفس العربية الى مجدٍ قائم لم يغب؛ لأن أصوله التي أقامته وشيدته لم تزل قائمة ماثلة.

وتأمل الدلالة الكامنة وراء تنكير اسم العَلَم: بوش مع أنه استجمع شروط المنع من التنوين – دال على هذه الإرادة الجادة التي ترى بوش وتابعه نكرات، لا يصح أن تعيق

إعلان تلك الحقيقة التي طمرتها شواغل الزمان، التي طرأت أخيراً.

وقد استثمر الشاعر تقنية يعرفها التنظير البلاغي باسم براعة الاستهلال، فأحسن عندما افتتح ديوانه بذكر أجل مواريث العرب، وأجل ما يفخرون به، وأعزّ ما بنى مجدهم، وهو ما لم يغب مع مدارات الزمان، يقول محمد الحربي:

على الأرض منه السلام

وللعُرْب طيّبهم والتقي، وفيهم رسالته، والنبيّ

وأعلى صروح

البيان.



وهذه المباغتة التي سميت في التراث البلاغي باسم (براعة الاستهلال) تعلن عن خطرها وقيمتها في أنها بحرٌّ المتلقي جرّاً إلى التسليم بما هو مفتتح به، إن مفتتح القصيدة/ الديوان يعلن أنه لا ثمة معارض في أن مجد العرب كان في الرسالة الخاتمة، وفي صاحبها صلى الله عليه وسلم وصروح البيان السامية، فلم تزل الكلمة هي أعلى مواريث الحضارات.

وقد تترست القصيدة عن طريق تقنية التناص، أو تداخل النصوص وراء الحقيقة المفضية إلى الإقرار بقيمة أعلى نص مبين في الوجود، وهو القرآن الكريم، فتسربت عن سطورها نفثات منه على مستوى المعجم الشعري، وعلى مستوى التراكيب، يقول محمد الحربي:

أعدّوا لهم ما استطعتم من الكبرياء.

وهو مأخوذ من قوله تعالى: «وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل» (سورة الأنفال ٨/ ٦٠).

وقد حشد الشاعر المسوّغات التي قادته الى إعلان حقيقة إن زماننا هو زمان العرب، ونثرها في طول الديوان بعد هذه المباغتة التي افتتح بها عمله، في شكل من أشكال براعات الاستهلال التي تحسب له، حرص الشاعر على الإعلاء من قيمة البيان بحسبانه منحة ربانية لا يُرْزَقُّها أي أحد، وقد ظهر هذا الإعلاء منذ مفتتح الديوان:

وللعرب.. أعلى صروح البيان

واستمر منسوباً في كل الديوان، يطل علينا وكأنه سلاح ماضٍ في وجه كل الذين خارت قواهم، ونسو أمجاد العرب؛ يقول:

و أما البيان فهذا بياني لكم فاحفظوه

ويقول:

فهذا البيان من الشعر ما رجُه للعدو، وخالص للعرب

وقد تعانق مع هذه القيمة التي أعطيت للبيان، بوصفه من المسوّغات التي قادت إلى النتيجة التي حمل الديوان عنوانها- قيمة من توابعها هي الإعلاء من اللغة العربية، ومما صدر عنها من علوم وحكمة؛ يقول الشاعر:

مسجّل هنا مرة تلو أخرى

بأني أنا اليعربي..

انشد قافية الليل مبصرة كالنهار.

وتزداد قيمة البيان واللسان، عندما نراه يدعو لهما في سياق إكبار المفردات التي تلخص طريق استعادة المجد العربي، وهي مفردات بعضها مألوف في سياق المقاومة، وبعضها غير دائر في ذلك المعجم، يقول:

فبوركت يا حجراً لا ينام
وبوركت يا لغتي العربية

وهذا التذكير بثوابت ما تمتلكه النفس العربية، لم يقف عند حدود دوائر الرسالة الخاتمة، والنبوة الزاكية المشرفة، وما تراكم على مدار القرون من تراث حنا على الوجود الإنساني، ولكنه يمتد فيذكر بقوائم طويلة جداً من ميزات العرب التي تجسدت في البناء، والإعمار، ورعاية الإنسان، يقول:

وكونوا به الرمح والصولجان
وكونوا الخلائف في جنة الله، أرض الرسالات
مهد الحضارات، مفروشة بالغمام، ومفروشةً بالعنب

وفي الوقت نفسه يدخلنا الشاعر في مقارنة دالة، شديدة الإيحاء، ليثبّت نتائجه المرصودة سلفاً، التي حكمت بأن هذا الزمان هو زمان العرب، تتجلى هذه المقارنة الصامتة من خلف ما جمعه للعدد المحتل من صفات تصب في قائمة الخراب، وتظهر حيثيات حكمة النهائي، الذي أعلنه منْ عنوان الديوان، يقول في العدو:

فأما الحروب فمن صنع فرعون هذا الزمان وهامانه

وبعيداً عن التخفي وراء الرمزين التراثيين؛ فرعون وهامان اللذين سينكشف أمرهما مع التقدم في بناء القصيدة/ الديوان، فإن ما يهمنا هنا هو رؤية الديوان لأقوياء هذا الزمان من زاوية حضارية، هي المعيار الحقيقي للحكم على الأمور، إن حضارة تنتج فرعون وهامان، أو بوش وبلير هي حضارة الانهيار، حتماً ستغيب عنها الشمس، وسيخرس يوماً مجدها إن وجد!

وقد أحسن محمد الحربي في استثمار هذه التقنية، فأظهر من خلال المقارنة الصامتة الماثلة، في بنية الديوان أن الحكم الموصول إليه حكم مشفوع بأدلته، فقد احتشد في الديوان فجمع ما اشتهر من رموز العدوان، والخراب، والظلام في الثقافة العربية، سواء كانت هذه الشخصيات التراثية، تاريخية أو أسطورية أو دينية، أو غير ذلك من التصنيفات المختلفة كما يلي:

أ) فرعون/ هامان:

فأما الحروب فمن صنع فرعون هذا الزمان وهامانه

ب) المغول/ الروم/ الفرس:

لم أقف خائباً
حين عاد المغول إلى غرّةِ الأرض
واستنجد الروم بالفرس
واللصُّ بالقسّ

ج) أبو جهل/ أبو لهب

صار لفارس في النسب العربي أبو جهل واللهب

د) قارون: من جرائر قارون

ولم يكتف الشاعر محمد الحربي أن يرصد هذه الشخصيات التراثية، تاركاً للمتلقي أمر التوصل الى معادلاتها الموضوعية، أو ما تشير إليه في الواقع الذي تصوره القصيدة؛ ولكنه صرح مع التقدم في بناء الديوان بأسماء عصابة الشر، الذين قادوا جحافل العداوة نحو بلاد العرب، ليصبح شارون، وبوش، وبريمر، وبلير، هي المعادل الموضوعي لرمز الشر القديمة، وقد أكدت ذلك تصريحاته التي يقول فيها:

من جرائر قارون

حتى جرائم شارون

حتى بغال العراق الأليفة في سرّة الحكم

في رحلة البحث عن علف في بقايا بريمر Bremer

أو في بقايا: مستر بلير Mr. Blair

وكتابة أسماء هذين العلمين بالأحرف اللاتنبية وإن يكن من رواسب القصيدة الحداثية (المرفوضة من جانبنا) يمكن أن تفسر جماليًا بشيء من الرفض والاحتقار؛ لأن يحمل الحرف العربي صورة رسمهما اللفظي! وهذا تفسير متعاطف مع بنية الديوان، البعيد حقيقة عن روح الحداثيين وأفاعيلهم.

لقد صوّرت أمريكا بالتتار، والمغول، وهما اختيار دالّ في هذا السياق المخَرِّب، الذي تمارسه هذه الشيطانة الرقطاء في عالم العرب.

على أن الحكم الموثَّق من قبل محمد الحربي بتقدّم العرب، وسبق زمانهم، لم يهمل رسم الطريق الى نقص التراب، الذي علق بهذه الحقيقة فأخفى وجهها المشرق الوضّاء، يقول:

لم أقف صامتاً

حين دكت جيوش التتار الجدار

لم أقف خائناً

حين عاد المغول الى غرة الأرض

واستنجد الروم بالفرس

واللص بالقس

لم أقف خائباً كالأوز!

والتوقف أمام استثمار الحيوان في الديوان ملمح جيد بالقراءة، وهي تقنية عرفتها الآداب العالمية، من زمان قديم، ربما بتأثير من الأدب العربي في عصر سيادة العربية.

وقد وظف محمد الحربي عدداً من الحيوانات في باب دفع تهمة التخاذل الواجب على العربي التحلي بها. ولعل أبرز ما ورد في بناء هذا الديوان هو استثمار (الإوزّ) و(البغل)؛ فالأول معروف عنه عدم القدرة على فعل شيء، حتى أن الأمثال القديمة في الأوساط الشعبية تقول: «للبط تهددين الشط»، وهو مثل يضرب في السخرية لمن يهدّد وهو في ضعف البط، وخوره، والإوز في مدونة الحيوان عند العرب، هو البط الكبير؛ كما أن البغل معروف عنه التبلد في الوعي الثقافي العربي، ومعروف عنه رداءة الأخلاق، كما روى الدميري في حياة الحيوان، ومن أجل ذلك وجدنا الشاعر هنا ينفي عن نفسه، وعن العربي، إمكان أن يكون أحد هذين الرمزين يقول:

لم أقف هائماً كالبغال

أفتش في لغتي عن معان تخفف وطأتها

أو تشير الى رحمة داخل النار

ويقول:

حتى بغال العراق الأليفة

في سرة الحكم

كما استثمر الشاعر ما علق بالفرس أو الخيل من خصائص القوة، والنبل والعراقة، مستغلاً كذلك ما أستقر في الوعي الثقافي العربي من الخيرية الكامنة خلف هذا الحيوان، ربما بتأثير ممتد للأثر النبوي الشريف: الخيل معقود بنواصيها الخير، وما جاء على شاكلته، فقد جاءت السياقات التي ذكر فيها الخيل دالة على ما نقول ونقرر.

يقول الشاعر:

وكونو الثوابت والعاديات

ولا يخفى أن ثمة قسماً تناولته بعض الآيات القرآنية الكريمة منذ افتتاح الوحي وتنزله في مكة المكرمة، كانت مادته هي العاديات وضبحها وجريها.

ويقول:

ولا تهلكوا، وتوخوا ما أمرتم به من عتاد

ومن زاد عزتكم من أياد، ومن صافنات الجياد

والدعوة إلى أن يكون العربي مثل صافنات الجياد، دالٌّ على قائمة طويلة من استثمار القوة والنبل والعراقة.

ويقول:

ولا تستعيد اللغات مهابتها والكواكب دريّها، والجبال غرابيبها، والجيادُ الصهيل لتبهج إلا إذا اشتعل الليل في حدقات النواجل.

لعذبات صهيل الجياد علامة بهجة، وعلامة على استعادة الذات العربية كينونته، لأن صهيل الجياد إعلان عن قوة، واستجماع طاقة، وإقبالاً على الحياة، وتحركاً من أجلها.

وتستمر القصيدة مذكرة بشيء آخر جليل، على أن ذا الزمان هو زمان العرب، فتعلي من شأن الرابط الذي ظل يربط العرب جميعاً، وتأمر عليه الأراذل؛ فنالوا منه وأسقطوه، وهو رمز الخلافة، عنوان وصف الأمة وترابطها، وهي أمر له تأصيلاته الشرعية التي حرص الشاعر منذ البدء على بيانها؛ يقول:

وكونوا الخلائف في جنة الله، أرض الرسالات
مهد الحضارات

في ربط دال وموحٍ بما خلفته فكرة الارتباط بكون الإنسان مخلوقاً للإعجاز، مستخلفاً في الأرض، ويقول:

لم أقل إنها حالة ستمر، سحابة صيف تبحّر
بل قلت هذا احتلال
يبيح دمي في العراق
ويدمر دار الخلافة
يحرق ما شجّرته العقول الجميلة في بيت حكمتها

وهذا التدمير الذي فعله المغول قديماً عندما داسها رجس التتار، هو ما فعله مغول الزمان الحديث عندما دنسها الأمريكان.

إن الشاعر مستكف أن يسدّد خائن، ويرقى إلى سدّة الحكم، في مكان ما علاه إلا الأكابر، يقول:

وأضحى الأمين الشريف العفيف بمحرا بها مَنْ كَذبْ
وأضحى السفيه اللئيم حكيماً
وساد الخؤون على رأس بيت الخلافة

وتتمثل فكرة الارتقاء برمزية الخلافة متعانقة بواحدة من أشهر الأفكار المتداولة في مدونة النقد الحديث، التي تولي اهتماماً خاصاً لما يسمى بجماليات المكان؛ وهو ما برز جلياً في التكثيف الذي صنعه الشاعر، من خلال استثمار مجموعة كبيرة من أعلام البلدان والمدن، التي علق في الذاكرة العربية ما لها من تاريخ ماجد نبيل؛ فأشاع بهذا التكثيف جواً قائماً من الشعور بالمجد والعراقة التي تملأ الصدر نزوعاً نحو استعادته، والتعلق به، والحرص عليه، يقول:

من عيون الرصافة والجسر حتى كروم الجليل

ويقول:

وأن لا طيرة لا عصر إلا بأفياء دجلتهم والنخيل

ولم تترابط هذي الأماكن إلا في ظل ما تأمر عليه الأراذل فأسقطوه، وأزالوه بعد ما غيرنا زماناً مستظلين بأفياء الخلافة، وهو ما دعا الشاعر إلى أن يقول:

تقول لي الأرض إن البلاد بلاد العرب
وفيهم بدايتها بالخلافة حتى تعود كما شاء

ولم تأت الصورة الشعرية متنافرة مع هذا الطرح الذي قدّمه الشاعر، بل بدت الصورة الشعرية خادمة لموضوع النص، متسمة في غير قليل من المواضع بالحدة والابتكار، وإن قلت بشكل عام، لكن قلتها مبررة بسبب من موضوع القصيدة، وبسبب من الأفكار المطروحة فيها، فعلى حين نرى في القصيدة

تمجيداً لما أنتجته العربية من علوم وحكمة، وما قدمه العرب زمان خلافتهم من خير وبرّ بالعالم، رأينا ذلك طلّالاً من وراء الصور التي أبدعها الشاعر، يقول:

قلت هذي هي العربية تسعى إليّ وتشكو

فقبلت مهجتها، وأخذت برفق يديها

وأجلستها فوق روحي

فسالت جروحي

وفاض المداد بأنبل ما يصطفيه الفؤاد

في هذه الصورة الممتدة التي كان محورها هذه النبيلة، وقد أوشكت حادثات الزمان أن تكسرها، وجدت من يترفق بها، ويحنو عليها، ويقبل في تشخيص تاريخ مهجتها، ويتخذ من الروح متكأ لها!

ويقول في بيان عدوان المحتل وهمجيته البادية، التي نزلت بمكانته ورشحته لأن يكون خلاف ما يعتقد الناس ويظنون:

بل قلت هذا احتلال

يحرق ما شجّرته العقول الجميلة في بيت حكمتها

وهو يسرق أسرار فتنتها، ومنازل أسيادها والسواد

ومن ناحية أخرى، استطاع الشاعر من خلال البنى الداخلية في النص أن يشيع جواً من الإيقاع الجليل الذي يوحي بالنبل والعراقة، وكأننا وسط عالم ملكي جليل القدر، ارتقت به منجزاته وآثاره وتفاليده الأصيلة العريقة الثابتة، معتمداً على ما زرعه الشاعر من وسائل بديعية، تضافرت مع تفعيلة (فعولن) الشائعة في الشعر الحرّ، التي راوح بينهما وبادل في بناء النص، من مثل: حسن التقسيم، والتشجيع الداخلي، واستثمار حروف المدّ ليحقق رثياً وهدوءاً مشعراً بالجلال، يقول الشاعر:

واستنجد الروم بالفرس

واللص بالقس

وهذه استثمار جيد للتقارب الذي بين السين والصاد، في الخصائص والسمات ويقول:

وأجلستها فوق روحي

فسالت جروحي

ويقول:

من جرائر قارون

حتى جرائم شارون

ولم يغب عن الشاعر أن يستثمر أخيراً التشكيل الطباعي؛ إدراكاً منه لأثر ذلك التشكيل الطباعي في إثراء دلالة النص؛ فقد أخرج الديوان في صورة عَرْضية لا طولية، في هيئة كتالوج كما يصنع الفنانون الرسامون في إشارة واضحة إلى آثار العرب لا تدل عليها الأوراق والأحبار وإنما تدل عليها لوحة أو لوحات سطروها على الأرض، وحملوا بها وجه الحياة، وهو المعنى الذي لم يخف أو يغب التصريح به في ذكر مآثر العرب، يقول الشاعر:

يقول لي البرعم الصبحَ هذا الجمال جمال العرب

مما ساد قبح على الأرض

إلا وأسقطه الحسن، والحسن باب كباب عدن

والحسن هنا هو حسن العرب القادر على إسقاط مقابح الغرب الغازي الأثيم.

كما جاء الخط قريباً جداً من خط النسخ بوضوحه، وبيان تفصيلات الحروف في إشارة إلى ما تتمتع به النفس العربية، وما يتمتع به عطاؤها الحضاري.

● كاتب وناقد - كلية التربية للبنات - الجوف.